دراسة أسلوبية في الخطبة التاسعة والعشرين من نهج البلاغة

د. عبد الوحيد نويدى (الكاتب المسؤول) أستاذ مشارك د. عبد الحسين فقهى

الباحث. محمود مسلمى

فرع اللغة العربية/ وآدابها جامعة طهران

Stylistics of the Sermon 28th Nahj al-Balaghah

Dr. Abdel-Wahid Nuweidi (responsible writer)

Ass.Prof. Abdul Hussain Faqahi Researcher. Mahmoud Muslimi

Arabic Language Branch\ University of Tehran

anavidi@ut.ac.ir

Abstract

The moral depth and respect of Imam Ali's brilliant and noble style, coupled with the rich thought of the rule, led to his speech being immortalized. The style of sermons at the Imam Ali peace be upon him, which includes the features of artistic prose has become a creative and brilliant method. The accuracy of the Imam Ali peace be upon him in the selection of vocabulary and proportionality, harmony and harmony between the words caused the creation of an atmosphere of music and good rhythm and this type of features of his words to him peace.. In this research, we sought through the descriptive-analytical approach and derived from the statistical information the study of the features of the Ninth Speech method through the three linguistic, literary and intellectual levels.

The results of the article indicate that Imam Ali (peace be upon him) cared about the music of the voices with great interest, and he benefited from it with great skill to influence the recipient. At the grammatical level, the imam is more likely than the actual camel On the literary level, Imam al-Salam was aware of the importance of rhetorical industries Through its use, and through the creation of images and the use of images, he was able to show the beauty of his speech to the reporter. At the intellectual level, the imam, peace be upon him, reprimanded his supporters and left them as they left the enemy fighter and did not preserve the unity between them.

Keywords: Stylistics, Nahj Al Balaghah, The Twenty, ninth sermon, Imam Ali.

الملخص

العمق المعنوي واستحكام الأسلوب الفذ والنفيس لدي الإمام عليّ عليه السلام، إلى جانب الفكر الغزير المشحون بالحكم أدّى إلى تخليد كلامه. أسلوب الخطب عند الامام عليّ عليه السلام لِمَا يضمّ في طياته من ميزات النثر الفني صار أسلوبا خلابا وزاهرا. فدقة الإمام عليّ عليه السلام في إنتقاء حروف المفردات والتناسب والإنسجام والتناغم ما بين الألفاظ تسبب في خلق جوّ مترع بالموسيقى والإيقاع الحسن وهذا النوع من أبرز سمات كلامه عليه السلام. في هذا البحث أردنا من خلال منهج الوصفي–التحليلي وبالإستمداد من المعلومات الإحصائية دراسة ميزات أسلوب الخطبة التاسعة والعشرين من خلال المستويات الثلاثة اللغوية والأدبية والفكرية.

تشير نتائج المقال إلى أن الإمام عليه السلام اهتمَّ بموسيقى الأصوات إهتماما بالغا وقد إستفاد منه ببراعة كبيرة للتأثير على المتلقي. في المستوى النحوي أكثر الإمام عليه السلام من إيراد الجمل الفعلية وفي المستوى الأدبي كان الإمام عليه السلام يعي أهمية الصناعات البلاغية وقد استطاع من خلال استخدامها وكذلك من خلال خلق الصور واستخدام البيان أن يظهر جمال خطبته عينا للمخاطب. في المستوى الفكري يقوم الإمام عليه السلام بتأنيب أنصاره وتعنيفهم إذ إنهم تركوا مناضلة العدو ولم يحفظوا الوحدة بينهم.

الكلمات الدليلية: الأسلوبية، نهج البلاغة، الخطبة التاسعة والعشرون، الإمام عليّ.

1- المقدمة

خطب نهج البلاغة بسبب غناها بالمعارف الدينية والأدبية تكتض بالصور ذات الوقع الموسيقيّ الرنان والخفيف على السمع. استطاع الإمام عليّ(ع) من خلال استخدام المفردات الموزونة والمنسجمة مع المعنى واستعمال الخيال الواسع والأصوات والكلمات المتلائمة مع المضمون أن يبث الحياة والروح والحيوية والنشاط في خطبه. المقال هذا يريد إماطة اللثام عن أبرز الملامح الأسلوبية في الخطبة التاسعة والعشرين من خلال الإجابة على لأسئلة التالية: ما هي ميزات الخطبة المدروسة في المستوى اللغوي والمستوى الأدبي والمستوى الفكري؟

2- الفرضيات

قد دُرِسَ المستوى اللغوي لهذه الخطبة على ثلاثة مستويات: المستوى الصوتي والمستوى القاموسي والمستوى النحوي.في مستوى الصوت تبيّن أن تكرار الحروف كان متناسقا تماما مع أهداف الخطبة ومضمونها. في المستوى القاموسي نرى المفردات المستعملة (على الأقل في زماننا الراهن) رزينة أي فيها شيء من الثقل وتحمل معها شيئا من الغموض والتعقيد إلا أن الأمام أبدع وجاء بالجديد في بعض التراكيب. بنية المفردات والكلمات المفتاحية في النص قد استعملت استعمالا يخدم الفكر والعاطفة عند الإمام (ع). في المستوى النحوي يفوق عدد الجمل الفعلية عددَ الجمل الأسمية، وقد استعمل الإمام الفعل الماضي أكثر من غيره من الأفعال. في المستوى الأدبي كان الإمام عليه السلام يدرك مدى أهمية الإستفادة من البلاغة وقد تمكن باستعمال هذه الفنون البلاغية إلى جانب خلق التصاوير والتقنيات البيانية أن يبرز جماليات الخطبة هذي بوضوح وشفافية مملوسة لكل ذي لب وعين. في المستوى الفكري يتطرق الإمام (ع) إلى غايتة الأصلية التي هي الدفاع عن الوطن وحفظ عرض المسلمين وكما خاض في تأنيب من خالفه (ع) في عدم مجابهة العدو من أصاحبه ومن نبذ وترك ملازمة الوحدة، وكذلك تطرق الإمام (ع) إلى ماكان عليه أصاحبه من حال طمع في حطام الدنيا وبيّن لهم أنهم أهل جمع للمال لا أهل فعل وقتال في سبيل الأهداف السمامية وفي النهاية يكشف الإمام (ع) عن يأسه من أن ينتفع بمثل هؤلاء الأصحاب.

3- خلفية البحث:

قد كتب الكثير من الكتب والمقالات حول شخصية علي (ع) وكتاب نهج البلاغة.و في هذا المجال يمكن أن نشير إلى رسالة «بررسى كاركرد تصوير هنرى در نهج البلاغة از ديدگاه نقد ادبى معاصر» لحسين چراغي وش.قد درس الباحث في دراسته هذه من منظور مباين للتصوير القديم أسلوبَ خطب نهج البلاغة في ثلاثة مستويات الصوتي والنحوي والدلالي(البلاغي). ومقال «ويژگيهاى زبانشناسى كلام امام على در وصف صفات اللهي» لمحمد مهدي جعفري وفاطمة سعيدي. تطرق الكاتبان في هذا المقال إلى دراسة ابعاد الجمال في كلام الإمام عند وصف الصفات الإلهية.و مقال «جايگاه ادبى نهج البلاغة: تحليل زبانشناختى گزيده هاى از كلام امام على» لبهنام بيوك.درس الكاتب في هذا البحث نبذة من كلام الإمام (ع) معتمدا على ركنين أساسين هما التماسك والتوازن. ورسالة «بررسى زبانشناختى خطبه قاصعة»لسيد رحمت ابراهيم زاده.درس الباحث في هذه الرسالة الأدب والبلاغة في الخطبة القاصعة من جانب لغوي ودرس المفردات دراسة لغوية ودرس البنية الصرفية والنحوية والأساليب النحوية والمعنوية. ومقال«سبك شناسى خطبة الأشباح» لعليّ نظري وكبرى خسروي وزهراء ابراهيمي.درس الباحثون في هذا البحث خطبة من خلال أربعة أبعاد وهي البعد الصوتي والنحوي والدلالي والفكري. ومقال «بررسى سبك شناختى خطبه همام»لحجت رسولي وولي اميد پور. درس الباحثون هذه الخطبة في ثلاثة مستويات: اللغوي والأدبي والفكري. ومقال «نگاهي سبك شناسانه به خطبه ى متقيين» لعباس اقبالي ومهوشحسن پور.درس الكاتبون أسلوب هذه الخطبة في ثلاثة مستويات: الفكري واللغوي والأدبي. وبعد دراسة الأبحاث والرسائل التي كتبت حول نهج البلاغة تبين لنا أن لم يكتب حتى الآن أيّ بحث مستقل حول الخطبة التاسعة والعشرين ولذلك يعتبر هذا البحث جديدا من نوعه.

4- الأسلوبية لغة واصطلاحا

الأسلوبية (Stylistics) علم يبحث عن الأسلوب (Style). مع أن مفهوم الأسلوب بديهيّ لكن بسبب ارتباطه مع مجالات متعددة فمن العسير أن نجد له تعريفا دقيقا. أكثر علماء الأسلوبية يؤكدون أن المقصود من علم الأسلوب هو تحليل اللغوي لبنية النص.(الأبطح، 1994: 11). المقصود من الأسلوبية على حد ما عرفها بيير جيرو هو دراسة اللغة أو نص بديع ما(بومصران، 8: 2011). وأيضا قيل إن الأسلوب حوار دائم بين القاريء والكاتب من خلال نص معين(مطلوب 126: 2002). وجاء في كتاب الأسلوبية للدكتور محمود فتوحي أن الأسلوبية «هي طريقة استعمال اللغة في سياق محدد عن طريق شخص محدد بهدف محدد»(فتوحي، 1390: 34) بوفون كاتب القرن الثامن عشر عرّف الأسلوب: «بأنه هو نفس الشخص» (ابن ذريل، 2000: 44). وقصده أن أسلوب كل أثر يكشف عن شخصية صاحب ذلك الأثر وفكرَه تجاه الكون والظواهر.

مع وجود الإختلاف لدى علماء الأسلوبية في حدها وتعريفهاإلا أنه كلمتهم قد اتفقت على أن الأسلوب، منهجُ بيانٍ فريد من نوعه عند الأديب. الأسلوب هو نتيجة نظرة الفنان المتمايزة تجاه العالم الخارج والداخل والتي تتجلى في نوع خاص من البيان.إذن مَن نظر إلى الوجود والآفاق بنظرة جديدة وجب عليه أن يستعمل تعابير ولغة متمايزة عن غيرها تستطيع أن تعكس تلك الصور الداخلية والمتواجدة في ذهنه أو أن يأتي بمصطلحات وتراكيب نحوية جديدة أو أن يعطي لمفرداته صبغة معنوية طرية حديثة أو يستعين بالمجاز والتشبيه والإستعارة ليجسد نظرته الجديدة للآخرين. فعلى هذا يمكن الإستنتاج أن الفكر الحديث والشعور الجديد يتطلبان لغة وطريقة تعبير غير مسبوقة ولا يمكن التصور أن اللفظ والمعنى يفترقان عن بعضهما البعض.بعبارة أخرى هناك علاقة متلازمة ووطيدة بين الذهن واللغة.

وقبل أن ندرس الخطبة دراسة أسلوبية يجب علينا أن نشير إلى نص الخطبة:

أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ وفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حَيَادِ مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ولَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ ولَا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ومَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ الْمَغْرُورُ واللَّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ ومَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ ومَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ أَصْبَحْتُ واللَّهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ولَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ولَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ مَا بَالُكُمْ مَا دَوَاؤُكُمْ مَا طِبُّكُمْ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقْوَالًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ وطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ»

خَطَبَ الإمام علي (ع) هذه الخطبة بعد وقوع التحكيم وهجوم الضحاك بن قيس وقد أشار فيها إلى ما حصل في أطراف أرض حكومته وقد حضّ أنصاره فيها إلى الصلاح وحفظ نظمهم وجهاد العدو. أفضل وأسهل طريق للوصل إلى الأجزاء المتكون منها النص وبنيته هو دراسة النص من خلال ثلاثة مستويات: المستوى اللغوي والمستوى الأدبي والمستوى الفكري.

4-1) المستوى اللغوي

لغة علي (ع) كنز من التصاوير والمجاز والإيقاع والرنين الجميل.و ليس كلامه (ع) مجرد افكار غنية ومفردات ثمينة ينتقي منها ما يتناسب مع موضوع النص فحسب بل وفقا لطبعه الخلاق يصنع مفردات جديدة. أيضا للغة ذاتِ الإيقاع الحسن في كلامه (ع) دور كبير.في هذا القسم ندرس ثلاثة مستويات: الصوتي واللقاموسي والنحوي.

4-1-1) المستوى الصوتي

يقول اللغويون في تعريف الصوت: الصوت أثر سمعي تنتجه أعضاء النطق الإنسانية بشكل إرادي على نحو ارتعاشات نتيجةً لحركات معينة. وهذا الأثر السمعي يسبب تكوين رموز وعلائم تعتبر اساس الكلام ثم تسبب هذه الرموز والعلائم تكوين الكلمات ذات المعنى والجمل والتعابير. وتعتبر هذه العناصر الأربعة أي الصوت والكلمة والمعنى والجملة أساسا للغة.(مطر 1998: 31)

عند دراسة أصوات نص ما يجب ملاحظة العلاقة بين تلك الأصوات والموضوع والتصاوير الفنية.لأن غاية الشاعر من تكرار صوت أو بعض الأصوات هي التركيز على قسم من الصور الشعرية ونقل العواطف. دراسة أصوات النص تسمى الأسلوبية الصوتية.

الصوت كائن حي وهذا الكائن الحي لا يستمدّ حياته إلا من النسيج العام للنص. دراسة أصوات لغة النص تعرف بالأسلوبية الصوتية.و هي تقوم بدراسة كيفية استعمال الوحدات الصوتية في لغة ما. هذا النهج عبر استخدام الكومبيوتر في تحليل الأصوات والأصوات الشعرية يعطي نتائج دقيقة في دراسة موسيقى الشعر.وأهمية التغييرات الصوتية ليست محدودة على العناصر الشكلية.

رغم أن التغييرات الصوتية تتعلق بخارج اللسان إلا أنها تؤثر على البناء المعنوي للجملة ونحو الكلام.الدراسة الصوتية للأسلوب تطلق على القوالب الصوتية وكيفية النطق وتريد الإجابة عن هذا السؤال أن استعمال القوالب الصوتية وأصوات اللسان إلى أي حد تتستطيع أن تمييز كلام الشخص وتعطيه شكلا خاصا بحيث تختلف عن الأشكال العادية للكلام واللغة المتداولة.

4-1-1-1) دراسة الأصوات المجهورة والمهموسة

قسم اللغويون الأصوات باعتبار المخارج وارتعاش الأوتار في الحنجرة الصوتية إلى قسمين: الحروف الصامتة والحروف الصائتة.الحروف الصامتة نفس حروف الهجاء وتنقسم هذه الحروف إلى حروف جهر وهمس وشدة ورخوة.تسمى الحروف التي تتولد عن طريق الارتعاش في الحنجرة حروفا مجهورة.في الصوتيات يسمى ظهور الصوت «جهرا» ويقع قبالة «الهمس» الذي يؤدى بصوت خفي.

الحروف المجهورة هي(ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن)(الصيغ، 1998: 97) يضاف إلى هذه الحروف غير الصائتة حروف الين «الواو والياء»)(انيس، بى تا: 22) الأصوات المهموسة هي الأصوات التي لا يحصل عند أدائها إرتعاش ولا يسمع لها طنين.الأحرف المهموسة ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه)(عباس، 1998(48)

نوع الحرف	العدد	النسبة المئوية
المجهور	265	%69.55
المهموس	116	%30.45
المجموع	381	%100

جدول الرقم 1 (الحروف المجهورة والمهموس)

من الحروف التي يكثر دورها في الخطب حرف الواو وهو من حروف الين.هذا الحرف له دور في مد الصوت وامتداد النفس وهكذا من خلال مد الصوت يبرز هذا الحرف نفسه لدى السامع. إذ إن المقام تحريك الهمة عند أنصاره لذلك ناسب تكراره غرض الخطبة. تكرّر حرف الام 60 مرة أى بالنسبة (13.15%) بالمئة ويحتل بهذه الإحصائية المرتبة الأولى. هذا الحرف له أهمية كبيرة في اللغة العربية.الف ولام من علائم التعريف في اللغة العربية. أداء حرف الام يكون من أحد جانبى اللسان.لأن اللسان عند أدائه ينحرف من موقعه الأصلي وهذا يتناسب تماما مع انحراف انصار علي (ع) عن جادة الصواب.و من سمات حرف اللام الوضوح. هذا الحرف مع حرفي النون والراء من أوضح الحروف عند الإستماع.و ليس فيه شدة إذ ليس فيه صوت انفجاري وليس فيه رخوة.لذلك اعتبره اللغويون حرف التوسط (السابق: 55)كثرة استعمال الام في الخطبة يبرز موقف الإمام (ع) ويجسد الحزن والهم الذي استولى على روح ونفس الإمام في تلك الساعات. بعد دراسة الحروف المهموسة والمجهورة يتضح أن استعمال الحروف كان ضعفي المهموسة وهذا يتناسب تماما مع فحوى الخطبة وغرضها والذي يبرز الحزن الذي أحاط بالإمام تلك اللحظات من كل صوب وحدب.

4-1-1-2) دراسة الأصوات الشديدة والصوامت الإحتكاكية في الخطبة

تتولد الأصوات الإنفجارية بأن يُحبَس الهواء بالكامل وبسرعة خارج الرئتين في مخرج الحرف ونتيجة لهذا الحبس يقوم الهواء بالضغط وبعد ذلك يخرج الهواء بشدة ودفعة واحدة وفي هذه الحال يتولد الصوت الإنفجاري(بشر، 247: 2000).هذه الأحرف التي تمر في إنتاجها بمراحل ثلاثة (الإحتباس-التدمير-الإنفجار) هي كالتالي: (ء ب ت ج د ض ط ق ك).الصوامت الاحتكاكية هي أصوات يضيق مجرى الهواء عند نطقها ويمر الهواء في حالة نطقها من ممر ضيق وهذه الحالة تنتج صفيرا أو الإحتكاك معها (المصدر السابق: 297) وتسمى هذه الأحرف، الأحرف الرخوة وهي: (ث ح خ ذ ز س ص ظ ع غ ف ه).

نوع الحرف	التواتر	النسبة المئوية
الانفجارى	124	%61.69
السايشى	77	%38.31
المجموع	201	%100

جدول الرقم 2 (الحروف الشديده والرخوة)

نظرا إلى الجدول الفوقاني إذما قسنا الحروف الإنفجارية بالصوامت الإحتكاكية فإنه يظهر لنا أن استعمال الصوامت الإحتكاكية أكثر.وهذا يبين لنا الصعوبة والشدة التي كان الإمام عليه السلام يواجهها وكذلك يعكس المرارة التي هي جلية وواضحة في نص الخطبة.وكما نشاهد أن الإمام قد استخدم الأحرف بدقة فائقة حيث نراها تنسجم تماما مع الظروف المسيطرة على نص الخطبة ولهذا الأمر قد أكثر الإمام عليه السلام من الحروف المجهورة والإنفجارية.

4-1-2) المستوى القاموسي

المفردات التي إنتقاها الإمام عليه السلام عربية فصيحة إلا أن بعض هذه المفردات صعبة ورزينة ويبدو أن أحد أسباب هذا الأمر هو الفاصل الزمني بيننا وبين عصر الإمام(ع).بعض هذه المفردات: «الصمّ-الصلاب-حيدي حياد-أعاليل-أضاليل -مطول-أفوق-ناصل» مع العلم أن مفردات هذه الخطبة في زمن الإمام (ع) كانت بيّنة وواضحة.

الأمر الأخر الذي يثير الإنتباه في المستوى القاموسي للخطبة تكرار بعض المفردات.مثلا تكرار ضمير الخطاب ل21 مرة مما يشير إلى أن الإمام (ع) كان يرى السبب الرئيسي لهزيمة قواته وانتصار العدو عليهم هو تخاذل قواته وتضعضع الهمم لديهم.تكرار مفردة «الله»جلّ جلاله لثلاث مرات في سياق القسم مما يبين مدى إتكال الإمام عليه السلام في الأمر على الله سبحانه وتعالى.

4-1-3) المستوى النحوي

بناء الخطبة بناء قديم وجمال النص وتفننه وارد على طريقة النصوص القديمة، في نص الخطبة هذه نواجه نوعين من البناء: الجمل الإسمية والجمل الفعلية. في الجدول التالي نشير إلى كيفية إنتشار الجمل في الخطبة:

نوع الجملة	التواتر	النسبة المئوية
الجملة الفعلية	31	%72
الجملة الاسمية	12	%28
المجموع	43	%100

جدول الرقم 3 (الجملات الفعلية والاسمية)

موافقا لما ورد في الجدول الفوقاني نلحظ أن تردد الجمل الفعلية التي تدل على النشاط والتحرك أكثر بكثير من الجمل الإسمية التي تشير إلى الثبوت وعدم الحركة.

وكما تشاهد فإن 70% بالمائة من جمل النص فعلية و30% بالمئة اسمية. مما يشير إلى النشاط والحركة داخل النص.لإن الجمل الفعلية تقدر على صيد الأحداث وتتبعها ورسم موقفها.تفوّق الأفعال الثلاثية جليّ في النص مما يدل على استمرار الحوادث وديمومتها ويبين قبول الواقع والتسليم له مع التأسف والحزن والحسرة.

وتفوق الجمل الفعلية في الخطبة بسبب: «العلاقة المستحكمة والحميمة في الجمل الفعلية»(تحريشى، 21: 2000) والتي تؤدي إلى الإنسجام والتواصل في النص وحتى تدل نوعا ما على الدلالة والمعنى الواحد بين الحركات.وبهذا النحو ترسم لنا الحركات السابقة والأفعال الخطوط العريضة والرئيسة.

نوع الفعل	التواتر	النسبة المئوية
الماضى	10	%32
المضارع	21	%68
جمع	31	%100

جدول الرقم 4 (نوع الأفعال)

وكما ترى أن الجمل الفعلية في النص تنقسم ما بين الماضي والحال أو المستقبل. إلا أن استعمال الجمل المضارعة أكثر من الجمل الماضوية. ودليل هذا حسب اعتقاد الكاتبان هو الأحوال التي كانوا عليها والتي سيؤلون إليها وأيضا التعامل والتصرف غير اللائق عند أصحاب الإمام (ع). إذ إن كل الأفعال أو جلها المستخدمة بمعنى الحال أو الاستقبال كانت تشير إلى الجانب السلبي فيهم «كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ وفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حَيَادِ... لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ ولَا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ومَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ... مَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ ومَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ أَصْبَحْتُ واللَّهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ولَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ولَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ».

والأمر المثير للإهتمام أن الإمام (ع) قد استعمل لفظ «والله» عزوجل في ثلاثة مواطن ؛الأمر الذي يبين أن علم الإمام تجاه أصحابه يشمل الماضي والحال والمستقبل. الجمل الفعلية أضفت إلى الخطبة جمالا خلابا مرتكزا على التماسك والتضامن والترابط. كان الإمام (ع) موفقا كل التوفيق في استعماله للأفعال لأن كل الأفعال كانت تعكس أهداف ومواقفه (ع) في مقابل القضايا التي حصلت آنذاك ويجعل المتلقي يتابع ما حدث بدقة ويشاركه المشاعر فيما وقع.

4-2) المستوى الأدبي

عند تحليل نص ما من ناحية المستوى الأدبي يتطرق فيه إلى مسائل مثل التشبيه والاستعارة والكناية ومسائل علم البديع مثل التورية والتناسب والطباق «شميسا، 1374: 158) على العموم من الممكن أن نعتبر هذه الخطبة مشهدا تراجيديا وحزينا؛ لأننا نرى في هذه الخطبة هزيمة الحق أمام الباطل وهذه الهزيمة ليست بسبب قوة العدو واقتداره بل هي بسبب الأفعال الشنيعة وغير الصحيحة من جانب اصحاب الإمام عليّ.

وعلى أية حال يجب القول أن تصوّر نص أدبي من دون خلق صور أمرٌ محال. وتركيب المفردات لايخلق صورا إلا إذا كان زمامها بيد ملكة الخيال. وبمساعدة الخيال ينقضّ جدار العقل وتأتي مكانة روية أدبية.إذن لا تكمل الصورة إلا عندما تتحد عناصر مختلفة مثل الخيال والتجربة الشعورية والموسيقى وتسند بعضها البعض.ولاتتكون هذه العناصر الثلاثة إلا عن طريق تركيب المفردات بطريقة خاصة في نص أدبي.فإذاً تركيب المفردات والتواصل بينها لا يخلق نصا أدبيا إلا عندما تكون مادته التجربة الشعورية ويساعده الخيال.

«أيهاالناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم» كناية عن التفرق والشقاق بين أصحابه. وعبارتا «المجتمعة أبدانهم» و«المختلفة أهواؤهم» تصور لنا صورتينِ، وهاتان الصورتان مبنيتان على اساس التضاد بين معنى حالتين مختلفتين، الحالة الأولى اجتماع الأبدان والأجسام والحالة الثانية تشتت الهواء.مع هذا فإن العبارتين يملكهما توازن صوتي عجيب حيث نرى «المجتمعة» في قبال «المختلفة» و«أبدانهم» في قبال «أهواؤهم». والتشابه الموجود بين الوحدات المذكورة هو سببب التشابه الصوتي الأمر الذي جعل بناء الخطبة منتظما وموزونا. ومن جانب أخرى أدى هذا التشابه إلى إيقاع وموسيقى وقد ظهر هذا الإيقاع في تشابه الصيغ الصرفية بين العبارتين.

عبارة «كلامكم يوهي الصمّ الصلاب » كناية عن التناقض الواضح بين ما يقولونه وما يفعلونه. قوله «حيدي حيادي ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم» كناية عن التخاذل والعجز في مبارزتهم للعدو وأنهم بدل الجهاد والقتال كانوا ينظرون إلى جيش العدو. قوله «أعاليل أضاليل» كناية عن نفاقهم وعدم صدقهم في إدعاء الإيمان. من أبرز سمات المنافق تركه الجهاد ومع علمنا

أن الجهاد واجب ديني.كيت: كناية عن العمل.في اللغة العربية يكنون بـ«فلان» عن الشخص وللكناية عن العدد يستعملون «كذا» وللكناية عن العمل ستخدمون «كيت». قوله «من فاز بكم والله فاز بالسهم الأخيب» كناية عن فرار أصحاب الإمام عليه السلام من ساحة المعركة وقوله «من رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» كناية عن تأنيب الإمام (ع) للأصحاب الذين فروا من الحرب.

يوجد في قوله «الصمّ الصلاب» استعارة مكنية، لأن الصم للإنسان ومع هذا قد أسنده الإمام للصخرة الصلبة و«صلاب» جمع «صلب» و«الصم الصلاب» يعني الصخر الصلب ولعل مراد الإمام (ع) منه هي القلوب القاسية، يعني أنكم عندما تقولون بألسنتكم تهابكم القلوب الصلبة ولكن عند الفعل تفعلون ما يُطمع عدوكم فيكم. في قوله «يوهي كلامكم – يطمع فعلكم – جاء القتال» يوجد في«كلام – فعل – قتال» استعارة مكنية لأن الإمام أسند لهذه الكلمات ما ليس لها حقيقة. يوجد مجاز مرسل في مفردت «قلب» من قوله «استراح» وعلاقة هذا المجاز الجزئية.و في قوله «سألتموني التطويل دفاع ذي الدين المَطُول» يوجد تشبيه بليغ، فقد شبه الإمام فعل أصحابه في تأخير القتال بفعل صاحب الدَين الذي يسوف في دفع دينه.

4-3) المستوى الفكري

4-3-1) أجواء النص العامة

بعدما غزا جيش معاوية العراق وأخاف أهله وقتل من أراد قتله وسلب ما شاء سلبه، خطب الإمام بهذه الخطبة بين أصحابه وحثهم للتصدى لجيش معاوية.ومن حيث الفحوى والمحتوى الوارد في نص هذه الخطبة يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام:

1-«أَيُّهَا اَلنَّاسُ اَلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ اَلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ كَلاَمُكُمْ يُوهِي اَلصُّمَّ اَلصِّلاَبَ وفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ اَلْأَعْدَاءَ تَقُولُونَ فِي اَلْمَجَالِسِ كَيْتَ وكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ اَلْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حَيَادِ مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ولاَ اِسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ دِفَاعَ ذِي اَلدَّيْنِ اَلْمَطُولِ لاَ يَمْنَعُ اَلضَّيْمَ اَلذَّلِيلُ ولاَ يُدْرَكُ اَلْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ»في هذا القسم يقرع الإمام أصحابه إذ إنهم تخاذلوا في قتال عدوهم ويوصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون ويدعون دون أن يفعلوا وأنهم ليسوا أهل عمل وقتال.

2-«أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ومَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ اَلْمَغْرُورُ واَللَّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ ومَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ واَللَّهِ بِالسَّهْمِ اَلْأَخْيَبِ ومَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ» يرى الإمام(ع) في هذ القسم أن أصحابه ليسوا أهلا للقتال.

3-«أَصْبَحْتُ واَللَّهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ولاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ولاَ أُوعِدُ اَلْعَدُوَّ بِكُمْ مَا بَالُكُمْ مَا دَوَاؤُكُمْ مَا طِبُّكُمْ» يبين الإمام يأسه وعدم رجاءه في أصحابه من بعدما شاهد فيهم من العجز والخذلان وعدم التناصر.

4-«اَلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ وطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ» يكرر الإمام (ع) تعنيفه وتقريعه لأصحابه بعدما ذكر أن أعداءكم رجال أمثالكم إلا أنكم في القتال لستم أمثالهم لأنكم تخشون الموت وهم لا يهابونه فهم أشجع منكم وأربط جأشا وما ذاك إلا لأنكم طمعتم في الدنيا ونسيتم حظكم من الأخرة.

4-3-2) نقد ودراسة للأفكار الرئيسة للأقسام الأربعة التي مر ذكرها

1- لوم أصحابه لتخاذلهم وعدم نصرتهم له وأن أكثرهم يقولون ولا يفعلون.

مصدر هذه الفكرة تجارب الحياة. تجارب الأشخاص والأمم طيلة الزمان وفي تلك الظروف والأحوال تثبت صحة هذا المدعى لأن جهادهم وقتالهم لم يكن إلا مجرد قول لا يعضده فعل وكما نعلم أن الجهاد والقتال دون سلاح لا يجدي نفعا. هذه الفكرة مع أنها قديمة لكن الأمم لاتزال بحاجة إلى أن تتعظ بها وحيث إن الإمام علي (ع) قد استخرج هذه الفكرة من واقع حياته فهي تعتبر نوعا من الإبداع.

2- أن أصحابه ليسوا جديرين للقتال.

مصدر هذه الفكرة أيضا تجارب الحياة المرة التي ذاقها الإمام(ع) مع جيوشه. وقيمة هذه الفكرة تشمل الأمم الضعيفة وهي جهة الإنضباط والتلائم قد قيلت في الوقت المناسب وأما من جانب الإبداع والابتكار فهي تعتبر فريدة من نوعها وجديدة لأنها من إنتاج الظروف وأحوال زمن الإمام(ع).

3-الإحباط وخيبة الأمل عند الإمام (ع) جراء تخاذل وتضعضع أتباعه.

مصدر هذا الأمر تجارب الحياة المرة والوَلمة وتشمل جميع الأمم والفرق تعاني من الرق العبودية (لغير الله عز وجل). وصحة هذا الأمر أيضاحقيقة وواقع وجدير بالتأمل ومع أنه من حيث الزمان يتعلق بما مضى إلا من جانب إعماله في الحياة والاتعاظ به أمر لا يزال حديثا ويعتبر بديعا.

4-الطمع في الدنيا وترك الجهاد.

أيضا مصدر هذه الفكرة تجارب الحياة ويشمل كل الأمم في كل مكان وزمان. كل من وثق بالدنيا فقدَ قواه وعزيمته للجهاد وقتال الأعداء. هذه الفكرة من حيث الإنضباط والتسلسل والتناسق تنسجم تماما مع الأحوال والأجواء المسيطرة على ذلك الزمان وهي النتيجة الطبيعية والمنطقية للتخاذل وترك منابذة العدو.هذه الفكرة قديمة لكنها لا تزال تدعم وترشد أصحاب الحق كي يحموا الحق والصدق. من جانب أنها تقليدية أو جديدة فيجب القول مادامت أنها نتيجة لآلام وأوجاع أقوام قد ذاقوها من قبلُ في تعتب حديثا جديدة. إذاً بعد تخاذل أتباع الإمام (ع) جاء دور العدو ليهجم على الإمام (ع) والناس العزل الأبرياء فيقتلهم ويسلب أموالهم.

5- النتائج

بعد دراسة الحروف المجهورة والمهموسة تبيين أن الحروف المجهورة في الخطبة قد وردت اكثر من المهموسة بمرتين، الأمر الذي ينسجم تماما مع أجواء الخطبة التي تُظهر حزن الإمام وغيظه مما حدث. استخدم الإمام الحروفَ استخداما دقيقا فإنه من أجل الظروف الصعبة استعمل بكثرة من الحروف المجهورة والإنفجارية. المفردات عربية وفصيحة وبعض المفردات فيها شيء من الثقل وبعد عن السهولة وهذا ربما يعود إلى الفاصل الزمني بين عصرنا وعصر الإمام (ع).

تردد الجمل الفعلية التي تدل على النشاط والحركة أكثر بكثير من الجمل الإسمية التي تدل على الثبوت والسكون. اكثر من استخدام الأفعال الثلاثية مما يدل على استمرار الحادث وقبول الواقع والتسليم له مع الحزن والتحسر. استعما المضارع اكثر من الماضي والذي يعود سببه إلى الظروف والتصرفات غير الائقة التي كان أتباعه يقومون بها وما سيقومون به فيما بعد. كل الأفعال التي استعملت بمعنى الحال أو المستقبل تدل على معنى سلبي. في المستوى الأدبي كان الإمام يعي أهمية استعمال الصنائع الأدبية وقد استطاع من خلال استخدام هذه الفنون إلى جانب خلق الصور والتقنيات البيانية أن يظهر الجمال في خطبته.

في المستوى الفكري قام الإمام من أجل الغاية الرئيسية وهي الدفاع عن الوطن والعرض بتعينف أتباعه وتقريعهم لأنهم لم يتصدوا للعدو ولأنهم لم يتحدوا أمامه فطمع العدوا فيهم وأيضا بيّن الإمام لأتباعه أنهم ليسوا رجال حرب وقتال بل أهل القول دون الفعل وفي النهاية تظهر خيبته ويأسه منهم.

المصادر

1- الأبطح، جلال، الاسلوبية، الطبعة الثانية، حلب: مركز الإنماء الحضارى، 1994م.
2- ابن ذريل، عدنان، النص والأسلوبية: بين النظرية والتطبيق (دراسة)، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000م.
3- ابن منظور الافريقى، لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربى، 1988م
4- انيس، ابراهيم، الاصوات اللغوية، قاهرة: مكتبة نهضة مصر، بى تا.
5- بشر، كمال، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب، 2000م.
6- بومصران، نبيل، بنيات الأسلوب، فى قصيدة مآتم وأعراس لعبدالله البردونى، الجزائر: جامعة قاصدى مرباح، ورقلة، 2011م
7- تحريشى، محمد، أدوات النص دراسة، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000م.
8- زمخشرى، جار الله محمود بن عمر، اساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود امين الخولى، القاهرة: 1953م.
9- شريف الرضى، محمد بن حسين، نهج البلاغة للصبحي صالح، محقق ومصحح فيض الإسلام، چاپ اول، قم: هجرت، 1414هـ.ق.
10- شميسا، سيروش، كليات سبك شناسى، چاپ سوم، تهران: نشر انديشه، 1374ش.
11- الصيغ، عبد العزيز، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دمشق: دار الفكر، 1998م.
12- عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م.
13- فتوحى رودمعجنى، محمود، سبك شناسى نظريه ها، رويكردها وروشها، تهران: انتشارت سخن، 1391.
14- مطر، عبد العزيز، علم اللغة وفقه اللغة، قطر: دار قطر بن الفجاءة، 1998م.
15- مطلوب، احمد، فى المصطلح النقدى، بغداد: منشورات المجمع العلمى، 2002م.